الميـــراث

قصة بقلم سليمان موسى

لقد مرت على ذلك عشرة اعوام ، ولكن رغم مرور هذه الفترة الطويلة فان تفاصيل الاحداث ما تزال ماثلة امام عيني مرتسمة في خاطري كأن القدر كتب حروفها في طريق حياتي بخيوط متوهجة من نار .

عشرة عوام ، بايامها ولياليها ، باصباحها وامسياتها بكل ما فيها من متاعب واتراح وشقاء وشجون ـ مرت كما تمر الاحلام في ساعات الكرى. وبقيت تلك المشاهد منتصبة تموج فيها الحياة كأنما وقعت بالامـــس القريب .

كنت ما ازال صغير السن يومذاك لم اتجاوز الحادية عشرة من عمري ، وكنا نعيش في منزل انيق شيدت جدرانه من الحجر الابيض الناصـع البياض ، وتحيط به حديقة صغيرة ملئت احواضها باصناف كثيرة من الورود والنباتات العطرية . ولقد ابتنى والدي ذلك المنزل في حـــي القطمون وهو يومذاك ماهول بذوي النعمة واليسار من اهل القدس .

لقد كان الانتقال الى ذلك المنزل الجديد مناسبة من مناسبات العمر الكبيرة بالنسبة لوالدي ووالدتي ... مناسبة عاشا اعواما طوالا وهما ينتظران تحقيقها . ذلك لان والدي عندما انتقل من القرية الى المدينة قبل اربعة وعشرين عاما لم يكن يملك منزلا ، واذكر انني نشأت في منزل صغير في القدس القديمة يطل على زقاق ضيق ولا يزوره ضوء الشمس الا لماما خلال اشهر الصيف .

وكان ابي يعمل في تجارة الاقمشة ويستأجر دكانا في القدس القديمة ، وقد حدثتني والدتي فيما بعد ان اسعار الاقمشة ارتفعت ارتفاعا كبيرا خلال الحرب واخذت ارباح والدي من الدكان تتضاعف وتزداد حتـــى تجمع لديه مبلغ كاف لبناء منزلنا الانيق في حي القطمون . وبعد ذلك نقل دكانه من القدس القديمة الى احد الشوارع الحديثة في المدينـــة الجديدة وملأها بالاقمشة الثمينة .

ولا ادري اذا كنا قضينا في منزلنا الجديد عاما كاملا .. كل ما اعلمه اننا لم نقض فيه وقتا طويلا . وفي ذلك الوقت لم اكن افهم سببا لرحيلنا عن المنزل . اما الان فقد كبرت وعرفت وفهمت .

عدت من المدرسة ذات يوم فوجدت والدتي في الحديقة ومعها اخواي الصغيران رجاء وزكي وهي تداعبهما . واشتركت مع اخوي في اللعب ثم جاءت والدتي ببعض الشطائر اللذيذة الطعم ، وفيما نحـن نلتهم تلك الشطائر بشراهة الاطفال سمعنا دويا هائلا هز ارجاء المكان حولنا ، وشعرت بالخوف ولاحظت ان وجه والدتي قد علاه الشحوب ، اما اخواي فقد اقتربا منها وامسكا بطرف ثوبها .

وسرعان ما ارتفع الضجيج حولنا وسمعنا صراخ النساء والاطفال ، واشتدت حركة السيارات . ثم اطلت احدى الجارات وقالت لوالدتي ان لغما قد انفجر في الحي المجاور لحينا .

ذلك اليوم لن انساه في حياتي ، فقد تكررت الاحداث بعده بسرعة عجيبه ، وصار من النادر ان ينقضي بعده يوم واحد دون وقوع الانفجارات وارتفاع الرصاص وازيز الطلقات . وكثيرا ما سمعت والدي يتحدث مع امي خلال السهرة عما جرى في هذا اليوم او ذاك . واخذت كلمة « يهود » تتردد على مسامعي بصورة مستمرة : في المنزل ، في الشارع ، في المدرسة ، وفي اي مكان اذ اذهب اليه . وكنت آوى الى فراشي احيانا دون ان اشعر بالنعاس فاسمع ابي يقرأ الانباء من الجريدة ويعلق عليها بما سمعه اثناء النهار من افواه الناس ثم تحدثه امي بما سمعته مـــن جاراتها ايضا .

ورويدا رويدا اخذت الفكرة الغامضة تتبلور في ذهني الصغير ولم تلبث ان تجسدت ذات يوم بصورة مريعة ساحقة عندما شاهدت سيارة شحن كبيرة تقف امام منزل جيراننا ، وعلمت من والدتي انهم عازمون على الرحيل من حي القطمون .

وفي تلك الليلة لم يذق والدي طعما للنوم ، فلقد قضى الليل بطوله يروح ويجيء في ارجاء الدار ، او يتقلب في الفراش كانه يضطجع على حزمة من قتاد ... لقد ازداد احساسنا بالفراغ والوحشه . اما انـــا فمضيت الى جانب امي والتصقت بجسمها وانا اشعر بخوف غامض لا اعرف كنهه ولا ادري مداه .

وثار والدي واشتد غيظه وغضبه ، واعلن سخطه على اولئك الاغنياء الجبناء الذين يبادرون للفرار من منازلهم عندما يدق ناقوس الخطـر دون ان يشعروا بالعار والخزي والشنار ، كأن جلودهم القذرة واموالهم اللعينة اعز عليهم من الوطن والشرف والكرامة .

واقسم والدي في سورة غضبه انه لن يغادر منزله مهما حدث ، حتى لو اقتضى الامر ان يقتل هو ونقتل نحن جميعا معه بين جدران المنزل او تحت الركام .

ومضت الايام متثاقلة بطيئة . وازدادت معها حدة الاضطراب المحيط بنا حتى صرنا كأننا نعيش في ساحة قتال ، تغيب الشمس ويطلع الصبـــاح على طلقات البارود ودوي المفرقعات .

واخيرا جاء ذلك اليوم الذي اقترب فيه خط النار من منزلنا ، واخذ اهل الحي يهجرونه عائلة بعد عائلة حتى خلت الطريق من المارة واقفرت الازقة ، ولم نعد نرى الا رجالا يمرون على عجل من هنا وهناك وهـــم يحملون بنادقهم بايديهم .

وبتنا ذات ليلة والرصاص يتساقط على جدار بيتنا ، بل ان احدى الطلقات اخترقت زجاج النافذة واستقرت في صدر الردهة الخارجية .

وسمعت امي تجادل ابي ردحا طويلا من تلك الليلة ، وكان الجدل يشتد تارة بينهما ثم لا يلبث ان تخف حدته . واستطعت ان افهم من حديثهما ان امي تحاول اقناع ابي بالرحيل بينما يصر هو على البقاء . كانت تحدثه بعواطفها وقلبها كما تستطيع الام ان تتحدث عندما تشعر بالخطر يهدد ابناءها ومنزلها . كانت تحس ان مملكتها الصغيرة تواجه خطرا موكدا ، وكان هو يحس بذلك الخطر ، ولكنه كان يخشى الرحيل ، يخشى ان يفر من منزله ويهيم على وجهه كما يهيم اللاجئون .

واخيرا تغلبت دموع امي وتوسلاتها على عناد ابي واصراره . لا بد انه شعر بعدم جدوى البقاء ، وتغلبت فيه غريزة المحافظة على النفس والزوجة والاولاد .. وفي الصباح بدأ يبحث عن وسيلة للرحيل، وكانت المعركة ما تزال محتدمة الى جوارنا ، ومضى ابي يبحث عن سيارة ولكنه لم يوفق .

لقد رفض اصحاب السيارات ان يخاطروا بالاقتراب من منزلنا رغم انه عرض خمسين دينارا هي كل ما يملك من نقود . وبكت امي وبكيت انا ووقف ابي حائرا ذاهلا لا يدري ما يفعل .

واخيرا قال ابي : ولم الاهتمام ؟ بعد اسبوع ستدخل الجيوش العربية الى فلسطين وتسحق اليهود : وعندئذ نعود الى منازلنا ونجد كل شيء في مكانه ، سنحمل معنا بعض الملابس والثياب ... انها بضعة ايام لا اكثر .

واقفلنا الابواب والنوافذ جيدا ورتبنا كل شيء في مكانه ، اما انا فقد القيت نظرة على سريري وعلى الخزانة الصغيرة التي تمتلىء ادراجها باللعب والكتب وبالاشياء الكثيرة التي يجمعها الاطفال . ثم غادرنا المنزل ودموع والدتي تنهمر على وجنتيها ..

.....

ومرت الاعوام العشرة كما يمر الحلم المخيف . لقد نزلنا اولا في ضيافة اقارب لنا في رام الله . ثم استاجرنا بعد بضعة اسابيع غرفة صغيرة في طرف المدينة واخذنا نعود انفسنا على حياة الشظف والتقتير ، وعندما حل فصل الشتاء رأيت والدتي تعطي اسورتها الذهبية لابي كي يبتاع لنا بها بعض الملابس الدافئة .

كنت الاحظ على ابي الوجوم المستمر والميل الى عدم الاختلاط بالناس والاشتراك معهم في الثرثرة والتخرصات ، وكثيرا ما كنت ارافقه في جولات اعتاد القيام بها خارج رام الله ، فيسير واسير الى جانبه حتى يصل الى تلة من التلال المرتفعة التي تشرف على تلك الارض القريبة البعيدة التي اصبحت حراما علينا . وهناك يقف ابي ويطيل الوقوف ويده تعبث بمفتاح متصل بخيط من الكتان . كان يخيل الي ان ذلك المفتاح يحمل له من المعاني والذكريات ما يزهده بعشرة الناس والتحدث اليهم . واحسب انه كان وهو يفكر بعصبية وعنف يشعر نحوهم بالدفء الوجداني الذي نشعر به عندما نصافح الاصدقاء او نقبل احباءنا .

ولكي نعيش ، اضطر ابي ان يعمل اجيرا واضطرت والدتي ان تشتغل بتطريز الملابس ، وكنت انا اشتغل ببيع علب السجائر خلال العطل المدرسية . وعرفنا من الحياة لونها الكريه الاسود المشحون بالالم والحسرة والحقد والحرمان .

عرفنا كيف تذل الحاجة الانسان ، وكيف تمر به حالات يتمنى فيها فراق هذه الدنيا ، وكيف يعتمل في كيانه بركان من الحقد المكتوم يستطيب فيه ان يأكل اكباد اولئك الذين شردوه وجعلوه .. « لاجئا » لا يعرف اين يعيش واين يبيت ..

عرفت الحقد في نفسي وعرفته كذلك في نفس ابي . ولكن ادهشني بعد بلوغي سن الرشد ان اعرف ان حقد والدي لم يكن منصبا على اولئك الغاصبين بقدر ما كان منصبا على نفسه هو .. كان يحس كأنما باع فلسطين لليهود لانه لم يحمل السلاح واكتفى بالفرار شأن العاجزين الجبناء ولهذا فقد ثقته بنفسه وبمن حوله . فقد ثقته بالعدالة والشرف وكل الخصال الانسانية الرفيعة . بل لقد كان يبلغ به اليأس احيانا الى فقدان ثقته بالله .

وفي العام الماضي فقط انتقلنا الى القدس القديمة حيث صرت اعمل . وكان والدي قد اثقلت كاهله المتاعب والهموم فشاخ قبل الاوان وزاد صمته ووجومه وميله الى اعتزال الناس . وفي القدس كانت تسليته الوحيده ان يتجول في الاحياء الشرقية خارج باب العمود كي ينعم النظر في احياء القدس الجديدة ويستعيد في النظر اليها احلامه واحقاده وامانيه .

وذات صباح بينما كان يسير الهوينا قريبا من الحي المهجور ، سمع حركة غير عادية الى جانب منزل هدمته القنابل ، فتلفت نحو مصدر الصوت وعندئذ فاجاه الرصاص واحس بوخزة حادة في جنبه ثم سقط على الارض .

عندما ذهبت الى عيادة الاسعاف وجدت ابي مسجى على ظهره وقد اصفر وجهه لكثرة ما نزف من دمه . خاطبته فلم يحر جوابا . رددت في مسامعه عبارات الحب والمودة التي طالما سمعتها منه في طفولتي ، ولكنه كان يطيل النظر الي ثم تطرف عيناه المغرورقتان بدموع لا تسيل.

ولاحظت يده اليمنى تحاول ان تمتد نحوي فامسكت بها ، ووجدت ان اصابعها ما تزال تقبض على ذلك المفتاح . وارتخت الاصابع عند لمستي وسقط المفتاح في راحة يدي فرفعته الى فمي مقبلا ثم دسسته في جيبي. كنت اعلم ان ذلك المفتاح هو الميراث الوحيد الذي يملك ابي ان يهبه لي في ساعاته الاخيرة . وكنت اعرف حقيقة المشاعر الكامنة في نفسه نحو ذلك المفتاح ... مشاعر التعاطف العميقة التي تكاد تبلغ درجه الوله والعباده .

وارتسمت على ملامح وجهه الشاحب ظلال ابتسامة واهنة ثم اسلم الروح .

وهكذا ذهب ابي ضحية كما ذهب سواه من الاف الضحايا على ثرى بلادنا الغالية .

ذهب ابي دون ان يترك لي ميراثا سوى قطعة صغيرة من الفولاذ على شكل مفتاح ... مفتاح المنزل الذي عشنا فيه ثم فررنا وغادرناه غنيمة للمجرمين .

ترى هل اعيش لاضع المفتاح في القفل ؟ واستعيد الميراث الذي تركه ابي الشهيد ؟

عمان — سليمان موسى